(٢١) هجرة العقول

د. صلاح:

كنا قد تكلمنا عن حجم الإنفاق الرهيب الموجود في الكيان الصهيوني المحتل ٤,٧ % من الدخل القومي، في حين أن الدول العربية المجاورة لها ٠,٢% فقط، وأعلى الدول العربية وأحسنهم طريقة وأوسعهم بذلًا للبحث العلمي كان حجم الإنفاق فيها ٠,٦% فقط من الدخل القومي، وهذه كارثة تؤدي بطبيعة الحال إلى هجرة العقول لأنهم لا يجدون معملًا ولا راتبًا ولا يجدون كفالةً ولا يجدون تفرغًا.

وبالتالي يَفِرّون من هذا الوضع، الذي لا يجدون فيه المكانة الأدبية أو المالية، إلى الدول الكبرى فيتحول علمه وقدراته إلى تعمير تلك البلاد الغربية ومن ثم تدميرًا للبلاد الإسلامية.

فهذه الهجرة لها وجهان، وجه تعمير الدول الغربية ووجه تدمير للدول الإسلامية، والمؤتمر الذي أقيم في الإمارات سنة ٢٠٠١ على مستوى الدول الإسلامية بدعوة من وزير العمل الإماراتي لوزراء العمل في الدول الإسلامية بعنوان " هجرة الأدمغة "، كانت الإحصائية أنه في عام ٢٠٠١ هاجر ٢١٠ ألف من العقول العربية إلى أمريكا الشمالية فقط فضلًا عن اليابان وأوروبا وغيرها.

وقدَّروا ما تم الإنفاق عليهم داخل بلادنا وجدوا أن هؤلاء كلفوا الأمة الإسلامية ٢٠٠ مليار دولار، فكان هذا السفر الذي يبدو أنه اختيار كلف الأمة اسلامية ٢٠٠ مليار!

نريد أن تعطينا فكرة عن قضية الهجرة وعلاقتها بمشروعنا صناعة العلماء.

د. راغب:

كلمة "هجرة العقول" هي أصلها كلمة تعبر عن أزمة كارثية وهي باللفظ الإنكليزي يسمونها Brain Drain أي "استنزاف العقول"، العقل يُستَنزَف إلى بلدٍ آخر وكأنني أحرم بلدًا معينًا من أغلى ما تملتك.

فمن يستنزف ثروات بلد معين من بترول ومعادن وغيرها، فكل هذا أقل قيمة من استنزاف العقل.

فالعقل هو أهم ما ميز الله عزوجل به الإنسان وقدمه على سائر المخلوقات، فإن استُنزِفَ هذا العقل سُلِبَت الأمة من أفضل ما تملك.

سُلِبت الأمة مما جعلها من البشر ومن بني الإنسان المُكَرَّم، فكل عقلٍ ناضج وواعٍ ترك البلاد وانطلق إلى غيرها فأي صلاحٍ يُرجى من أمة استنزفت أغلى ما تملك وهو العقل.

فاستنزاف العقول أصبح بكل المقاييس ظاهرة.

هناك دراسة تقول أن ٥٠% من الّذين ينتقلون للدراسة من العرب والمسلمين إلى أوربا وأمريكا فهم لا يعودون إلى بلادهم.

ومن يعودون إلى بلادهم قليل جدا منهم من يعود بحماسة العمل، بل كثير منهم يعود مُحبَط نتيجة ما يسمى بـ Civilization Shock أو الصدمة الحضارية، فعندما يذهب إلى بلاد الغرب ويجد ما بها من حضارة متقدمة ثم يعود إلى بلده فيجد ما بها من ضعف، فيحدث له صدمة وينتكس في بلاده، فأصبح الزيارة إلى الخارج لم تعود على الأمة بما ينبغي أن تعود به.

نحن لا نمنع أحدًا من الذهاب إلى هناك وأخذ العلم، لكن نقصد الهجرة والبقاء هناك في هذه الدول.

عندما نتكلم عن بريطانيا على سبيل المثال؛ وهي من البلاد المستنزفة للعقول الإسلامية بغزارة، فوجدوا إحصائية غريبة جدًا وهي أن ٣٤% من أطباء بريطانيا بشكل عام هم من أصول عربية وإسلامية! أي ثلث الطاقة الطبية الإنجليزية مرجعها للمسلمين والعرب.

د. صلاح:

وأيضًا الأطباء في نيويورك ومن أصول الشام عددهم أكبر من عدد الأطباء الموجودين في بلاد الشام قاطبة، أي سوريا والأردن وفلسطين ولبنان، وهناك إحصاءات مفزعة: دولة مثل لبنان أكثر من ٨٥% من المهاجرين لبلاد الغرب لا يعودون إليها، والمصريين ٧٥% لا يعودون إلى بلادهم، والسوريون أكثر من ٨٥% لا يعودون، والإيرانيين أكثر من ٨٠% لا يعودون إلى بلادهم وكذلك الباكستانيين.

د. راغب:

وهذا في كافة المجالات، فتجد الهجرة في مجالات طبية وزراعية وصناعية وفي مجالات نووية، فيجد المسلم لديه القبول لفكرة أن يذهب إلى هذا المكان ليخترع ويطور فيه الأسلحة حتى تأتي بعد ذلك إلى بلاد المسلمين عن طريق الاحتلال.

وهذا الوضع يجعلنا نُفكر، فنحن نفتقد هذه العقول في حين أن البلاد الأخرى تزداد قوتها بهذه العقول.

فأنا كمسلم بدلا من أن أعطي الفرصة لعقول العالم أن تأتي معي إلى بلادي وتساهم معي في بناء الأمة، فإذا بي أُصدر عقولي إلى الآخرين.

لكن انظر ماذا يفعل الآخرون، أمريكا قامت بتغيير قانون الهجرة خاصها، فهو كان قانون عشوائي مثل القرعة، لكنهم فقاموا بتغيره فأصبح يقصد أصحاب الإبداع والعقول، وكأن هناك مخطط لتفريغ المنطقة العربية والإسلامية من العقول المبدعة.

ونكرر أننا لا نوجه اللوم إلى الغرب، حتى لا نعلق أخطاءنا عليهم، فالغرب يبحث عن مصلحته ومن حقه أن يبحث عن مصلحته، فهم يقولونها صراحة أنهم يفتحون المجال لأصحاب العقول المبدعة في كل العالم مسلمين وغيرهم، ومن يريد أن يأخذ فرصته يتقدم وإلا فلا، لا يوجد أي نوع من الإكراه على أحد.

أنظر إلى أمريكا وماذا يفعل القوم الذين يبحثون عن رفعة بلادهم، في نهاية السنوات الماضية أصبحت الهند من الدول الرائدة في مجال البرمجة والكمبيوتر وأصبح بسبب تقدمها أصبحت التقارير والبحوث والإحصائيات الخاصة بأمريكا وانجلترا وفرنسا تُنجز في الهند ثم بعد ذلك تُصدر إليهم، بل أن الكثير من المدراء في أمريكا وانجلترا لديهم السكرتارية الخاصة بهم في الهند، لأن الأسعار في الهند أقل والتقدم عالي فبدل من أن يأتوا بسكرتارية أمريكية فيأتون بها من الهند بأسعار أقل وتبقى في الهند ويكون العمل عن طريق الانترنت وبشكل فوري.

فأمريكا عندما لاحظت هذا التقدم الهائل في الهند قامت بفكرة بسيطة جدًا وهي إعلان هجرة، في سنة ١٩٩٤ قالوا سنخصص مئة ألف تأشيرة كاملة أي هجرة كاملة لكل هندي مبرمج، والهند بها ظروف صعبة وفقر شديد، فلماذا لا يذهب إلى هناك؟

ليس هناك ما يسمى بظروف صعبة لكن هناك ما يسمى بالإرادة، فالإرادة تجعل الشخص ينحت في الصخر، فكما ضربنا مثل كوريا الشمالية وكيف استطاعت أن تصنع السلاح النووي برغم كل الظروف التي تمر بها والآن هي تُخيف العالم كله بل وتهدد أمن أمريكا، فهناك أيضا الهند وبالرغم من ظروفها الصعبة من فقر ومجاعات وانشار الأمراض إلا أنها رائدة في مجال الكمبيوتر بل وأصبح الآن يسيل لعاب أمريكا على مبرمجي الكمبيوتر في الهند.

كنت في كندا وقابلت أحد المسلمين ومن أصاحب جنسية (بدون) ،أي ليس له جنسية لأنه كان يعيش على الحدود بين الكويت والسعودية، ولم يكن لديه أي فرصة للسفر لأن ليس لديه passport، ففي يوم وجد أن سفارة كندا قامت بالإعلان هجرة وبشروط معينة، وهو كان مبرمج كمبيوتر، فذهب ليتقدم بطلب هجرة وأخبرهم أنه من جنسية (بدون) فقالوا له ألست إنسانًا لديك عقل ووافقوا على طلبه، ويعيش في كندا ومستقر وكل إبداعه في مجال الإلكترونيات تستفيد منها كندا الآن، وهذا وضع أصابني بهم شديد.

وكما قلنا فإن كان ٣٤% من أطباء إنجلترا من أصول عربية وإسلامية، فإن هناك ٢٣% من العقول الهندسية في إنجلترا من أصول عربية وإسلامية، أي ليس مجالا واحدًا، وهذا يعطنا إضاءة أمل أن العقول الإسلامية ليس فيها نقص، فإن وضعناها في بيئة صالحة فإننا سنبدع وسنسبق وسنصبح علماء في مجال الكمبيوتر والطب وغيرها، لكننا حرمنا العالم الإسمي من هذه العقول، ما رأي حضرتك في فكرة السفر هذه؟

د. صلاح:

هذه مسألة مؤلمة لكن أتمنى أن كل مسلم يعيش بالرؤية الفقهية التي قدمها الإمام بن تيمية في كتابه (السياسة الشرعية)، صحيح أن الموضوع مختلف، لكن لما تكلم في (رسالة المظالم المشتركة) وقال إذا اضطر أحدهم للعمل في نظام المكوس والضرائب وإن كان يريد تقليل الضرر على المظلومين وإذا أتيح له أن يصحح هذا الوضع ويعود به إلى الوضع الصحيح، فعمله يُرجى أن يكون مقبولًا عند الله تبارك وتعالى.

أقول لمن يريد ذلك، لا حرج أن تسافر بل نحن لا نريد أن نغلق هذا الباب لكن بالعكس نريده أن يذهب ويتعلم آخر مستوى علمي ويبدًا من حيث انتهى الآخرون بنية أن يُزيد ويَبتكر ويَخترع لكن يحاول أن يُوجِد المناخ، وهذا يلقي العبء على عموم الأمة الإسلامية أن يكون هناك حركة إصلاحية داخلية لأن علماء الأمة هؤلاء هم رصيد ضخم وكبير بالنسبة لها.

لن يمكن أن نظل مصدر طرد لعلمائنا ويكون الغرب مصدر جَذب لعلمائنا، ونظل نخسر حجر الزاوية في عملية التطوير والتعمير الحضاري، وحجر الزاوية هو العقل والمفكر المبدع المبتكر.

وكما قيل: (لموت قبيلة خير من موت عالِم)، فهي كاثرة كبيرة عندما يذهب العالم ويترك البلد.

د. راغب:

كيف أعيده إلى بلده؟

فالمجال مفتوح أمامه، وقد يسافر لرغبته في طلب العلم هناك، وإن كانت رغبة وهمية قليلًا، فيسافر ولا يرغب بالعودة لأن الفتنة هناك كبيرة ليس المادية فقط بل العلمية أيضا، فهناك المجال مفتوحا له.

فيكون قد وجد هذا الوَسَط الذي يقدّره ويساعده على إبداع، فلا يعود إلى بلاده.

السؤال هنا، ما الذي علي فعله لكي أعيد هذا الطالب المسلم إلى بلاده؟

أرى أن المشكلة الأساسية هي مشكلة انتماء، فهو قد سافر إلى الخارج من غير أن يكون لديه انتماء وحب للبلد الذي ينتمي إليه وحب للدين الذي يعتقده فمستحيل أن يعود.

إذا فالقضية أصبحت عند العلماء المربين في بلادنا، فهنا يأتي دور التربية فمن بداية نشأة الطلاب من أول مرحلة تعليمية ومرورًا بكل المراحل التعليمية لا بد للمربي والداعية والمعلم أن يُعَلِّم طالبه انه لا مانع أن يبحث عن العلم في كل مكان لكن يعلمه أن يجب أن يعود إلى أمته وينفع هذه الأمة.

ويعلمه أنه أن تركت هذه الأمة وهي في هذه الظروف، فتكون قد تركت ثغرة، فالأمة أن لم تكفي حاجتها من العلماء في كل التخصصات فتأثم الأمة وانت معهم بل أنت في مقدمتهم لأنك على أول الثغرة لأنه بالنسبة لك تحول فرض الكفاية إلى فرض عين.

فأنت أن كنت مهندسًا وترى أن الأمة الإسلامية تعاني في مجال الهندسة وتركتها وذهبت إلى غيرها فأنت في مقدمة الآثمين.

هذا المعنى الشرعي أن زرع في قلوب المسلمين والحميّة لهذه الأمة والانتماء لهذا الدين والبلد الذي تربينا وعشنا فيه، فهنا يسافر ويأخذ العلم ويعود ليثري به الحياة العلمية في بلادنا.

د. صلاح:

جيد، لكن لا نريد أن نؤثم الناس، لأن بعدوته، مثل تجربة الدكتور المشدّ الذي كان عالم ذرة كبير جدا وعاد وقال أنا مهدد لأنه مطلوب مني ألا أرجع إلى بلادي ومطلوب مني أن يكون علمي فقط للمجتمع الغربي ومهدد من الصهاينة بشكل خاص.

وحتى إذا كان في المجال النووي الذي له وضع خاص فنحن نريد أيضا علماء في هذا المجال، وحماية هؤلاء العلماء وكفالتهم هي مسؤولية الأنظمة والأغنياء والأثرياء، فعندما يعود العالِم من الخارج لا أتركه يجلس بلا عمل أو بلا معمل سيحتاج للعمل به أو لا يجد مواد ليبدأ منها براءات الاختراع أو العمل العلمي.

لكننا لا نلقي العبء على العلماء والنبغاء فقط، بل هذه تحتاج إلى حركة شعبية، قال الله تعالى: {هُوَ الذي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال: ٦٢]، فنصر من السماء ومؤمنين في الأرض.

د. راغب:

إذًا هو التمازج، نريد حاكم ومحكوم، نريد عالم وطالب علم، فهي منظومة متكاملة.

أنقل لكم تجربة وهي غير إسلامية لكنها ناجحة ونرى أثرها، وهي التجربة اليابانية.

الإمبراطور ميجي في القرن التاسع عشر عندما فكَّر في نهضة اليابان، وكان قد وجد الوضع مزريًا في اليابان ووجدها في حالة من التخلف العلمي الشديد والغرب في سبق علمي هائل، فقام بتصدير الكثير من العقول إلى أوربا ليعودوا إلى اليابان بعلم أوروبا ثم يبدأوا نهضتها من جديد.

لكن هذه المجموعة قبل أن تهاجر إلى أوروبا أخذت دورات تربوية عالية المستوى في اليابان لتزرع الولاء والانتماء لليابان وكأنهم خرجوا في مهمة كالمهمات العسكرية، مهمة لمصلحة البلاد ليتعلموا علمًا معينًا في مدة معينة لتحصيل العلوم ثم يعودون إلى بلادهم لينهضوا بها.

وأتذكر قصة رجل من هؤلاء وذهب إلى ألمانيا وهو مهندس ياباني في مصنع سيارات وبدأ يعمل في معمل ولم يكن هناك اي سيارة تنتج في اليابان وقتها، وجد انه بكونه مهندس في المصنع لا يستطيع أن يحصل التقنية التي يُصنع بها السيارة فوجد أن أفضل وسيلة ليتعرف على كيفية تصنيع سيارة هي أنه يعمل بيديه، وغيَّر وظيفته من مهندس إلى عامل في المصنع، وبدأ يعمل بيديه إلى أن احترف هذا العمل، ثم عاد إلى اليابان وصنع السيارة وكانت أول سيارة يابانية، وهي تويوتا، وانظر الآن إلى مكانة السيارات اليابانية في السوق الأمريكية والأوربية وكل هذا ليس من فراغ.

د. صلاح:

انا كنت في ميشيغان ورأيت السيارة اليابانية تنافس السيارة الأمريكية في عمق دارها، وهذا يرجع إلى وجود الرؤية.

ونتمنى أن يكون لدى المسلم هذا الانتماء والولاء، وكذلك المجتمع بسلطته يعمل على استعادة هذه العقول المتميزة حتى يشارك في نهضة علمية وحضارية متميزة تجمع بين الجوانب الثلاثة التي رسمها الدكتور راغب السرجاني في المثلث الهرمي، وهي الجانب المادي في قاعدة المثلث ثم الجانب الإنساني ثم الجانب الإيماني في قمته.